

تمظهرات التاريخ والهوية في الرواية الجزائرية المعاصرة
رواية "مزرعة الجونكيرو" لطاهر حليسي أنموذجا مقارنة نقدية
Manifestations of History and Identity in the Contemporary Algerian
Novel
The Novel "The Junquera Farm" by Tahar Halisi as a Model: A Critical
Approach

جمال سعادته

الصالح سعودي*

جامعة باتنة 1

جامعة باتنة 1

مخبر الشعرية

مخبر الشعرية

djamel.saadna@univ-batna.dzsalah.saoudi@univ-batna.dz

تاريخ القبول: 2024-12-14

تاريخ الإرسال: 2024-10-29

ملخص:

يحاول هذا المقال مقارنة رواية "مزرعة الجونكيرو" لصاحبها "طاهر حليسي" بوصفها واحدة من النماذج الروائية الجزائرية ذات الحمولة التاريخية والهوياتية؛ وقد تناولت هذه الرواية مراحل هامة من تاريخ الجزائر، فكان المكان عاملا أساسيا في حبكة، انطلاقا من جبال الأوراس مهد الثورة، ومعزجا على جنوب إيطاليا، ومعارك الحرب العالمية الثانية، عائدا إلى أرض الوطن؛ ساردا معظم ما شهده البطل من خيبات بُعيد الاستقلال. وقد ضمّن الكاتب هذه الرواية بعض الحوارات الحقيقية بين الرمز الثوري الأيقونة بن بولعيد، وبعض رفاقه، وكذلك سيرة والد الروائي ووالدته، وهدف المقال الأساسي من خلال هذه المقاربة هو تفكيك المحاور التي تنبني عليها هذه الرواية. وبالتحديد محوري السرد التاريخي، والهوياتي بمختلف تمظهراته.

الكلمات المفتاحية: الرواية؛ التاريخ؛ الثورة؛ الهوية؛ الموروث.

*-المؤلف المراسل.

Abstract

This article attempts to approach the novel **the farm of junqueira** by the **Algerian** journalist and writer **Tahar Helissi** as a model for the Algerian novel loaded with historical and identity loads touching on important stages of Algerian history using the place as a fundamental factor in writing his novel ; starting from the Aures Mountains the cradle of the revolution. Going through Southern Italy and the battles of world war 2 returning most of the homeland, recounting most of the disappointments the hero witnessed on the day of independence. The writer included this novel with some real dialogues between the iconic revolutionary symbol ben boulaïd and some of his companions, as well as the biography of this article. The axes on which this novel is based, specifically the axes of the historical and identity narrative in its various manifestations.

Keywords: Novel; History; Revolution; Identity; Heritage

مقدمة:

تنطلق هذه الدراسة من إشكالية كبرى وسؤال مركزي يتعلق بالبحث في الأسس تقوم عليها الكتابة السردية؛ من حيث علاقتها بالتاريخ وبعموم الواقع الخارجي؛ ومن ثم فإن أول تساؤل يمكن طرحه؛ كيف ينهل السرد من التاريخ بوصفه واقعا أو مجالا للحقيقة، بالشكل الذي يجعله منسجما مع ماهيته كمجال للتخييل؟ ألا يكون ذلك سببا في تدافع الواقعي والمتخيل، مما يثير تساؤلات أخرى أهمها:

كيف يمكن للقارئ أن يعرف أن ما يكتبه السارد حقيقة وليس خيالا أو

العكس؟

بما أن هذا النوع من السرد يعتمد الخطاب الاستذكاري، فهل يستطيع السارد أن يقدم الأحداث في صورتها السابقة؟ ذلك لأن لحظة الكتابة؛ أي زمن السرد ليس هو نفسه زمن الحدث، فلحظة الكتابة -كما يقول بعض الدارسين- تفرز وعيا مغايرا عن الوعي القديم المرتبط بلحظة الحدث، ومن ثم يمكن أن نتساءل أيضا هل هذا يعني أن السارد قد يصور الماضي من وجهة نظر الحاضر؟

أولاً: تمفصلات التاريخ بين الهوية والسيرة الذاتية:

1/ في ماهية التاريخ:

من المتعارف عليه أن التاريخ يعدّ "سجلاً لنشاط الإنسان المادي والروحي معا (...). يتناول الإنسان المجتمعي في تطوره ضمن شروط وجوده الطبيعية في تطورها. إنّه الفكر والفن واللغة والاقتصاد والسياسة والدين والإنتاج وأدواته (...)". إنّه العلم الموسوعي الشمولي الوحيد الذي تناول الإنسان سيرورة وصورته، فعلاً وانفعلاً في الزمان والمكان.¹ فهو بذلك الارتكاز والقاعدة الناتجة عن التراكمات الهوياتية التي تتوارثها الأجيال، فتسرد سواء عن طريق كتب التاريخ من طرف المؤرخين أو من خلال المبدعين الذين يجعلون التاريخ مادة دسمة ومرجعاً أساسياً لكتابتهم الإبداعية، رغم ما يلف هذه الأحداث من جانب تخيلي إبداعي يحفظ لها الخصوصية الأدبية.

وتجدر الإشارة إلى أنّ "العلاقة بين الرواية والتاريخ علاقة جد وطيدة تبرز ملامحها من خلال لجوء الرواية إلى توظيف أنماط السرد التاريخي أحياناً، وتأويل وقائع وأحداث التاريخ وفق قالب جمالي تخيلي أحياناً أخرى. ذلك أن الرواية وباعتمادها الزمن الدائري للأحداث تقوم بعصرنة الماضي وجعله يستمر في الزمن ليعانق قضايا الحاضر، والمستقبل التي لا يجد القارئ تفسيراً لها إلا بربطها بوقائع الماضي وعمله وعبره"²، وهذا ما سعى إليه طاهر حليسي في هذه الرواية.

2/ الهوية بين السرد التاريخي والروائي:

الرواية الأدبية هي عمل يُكتب جماعياً ليقرأ فردياً؛ لأنّها العمل الإبداعي الذي يفسح المجال واسعاً أمام الروائي ليعبر عن رؤاه وأفكاره، فهي الجنس الأدبي الأكثر مرونة وتجسداً

¹: أحمد داود: تاريخ سوريا القديم، ط3، 2008، ص12.

²: ينظر: عبد الرحمان النوايتي، السرد والأنساق الثقافية في الكتابة الروائية، ص228.

لوقائع الحياة اليومية للفرد والمجتمع. وهي بذلك ستحمل لا محالة أعباء صنع المستقبل عبر تجديد مقارباتها الفنية والمضمونية بقطع النظر عن أدبيات التأثير والتأثر¹. ولعل أول ما يلفت الانتباه في "مزرعة الجونكير" هو مقدرة الروائي الطاهر حليسي على جعل خطابه الروائي يقوم على استدعاء تاريخ الجزائر يزخم أحداثا الممتدة من الثورة إلى ما بعد الاستقلال، ليسلط الضوء على مشاهد أخرى من تاريخ الجزائر؛ ربما تكون قد طالتها بعض العتمة، وبالأخص ما يتعلق بفترة الحرب العالمية الثانية، وتداعياتها المؤثرة في تهينة الظروف السُّننية الطبيعية التي تفضي إلى المآلات التاريخية، التي تنتج الثورة كحالة طبيعية تتمتع بالحد المطلوب من المشروعية، والمقبولية والمعقولة، وبالإضافة إلى ذلك استدعت الرواية فترة ما بعد الاستقلال، التي شهدت بعض التصرفات الانتهازية للحصول على امتيازات مادية أو معنوية باستغلال الماضي الثوري، ومن ثم الانحراف عن خط الثورة، والتخلي عما كان يدعو إليه المجاهدون من مبادئ ضحوا لأجلها، فخابت الأمانى المنشودة بسبب تلك التصرفات. "اليوم 19 مارس 1962، انتهت الحرب بعد سبع سنوات ونصف من القتال. هجرنا أرضنا لكن الوطن عاد إلينا. من الآن فصاعدا سيكون وطننا هو بيتنا الكبير"².

إنَّ السرد عند طاهر حليسي "أكبر من مجرد مظهر لفظي للخطاب، بل هو تشكيل عالم متخيل، تحاك ضمنه استراتيجيات التمثيل، وصور الذات عن ماضيها وكيونيتها وتندغم فيه أهواء، وتحيزات، وافتراضات تكتسب طبيعة البديهيات ونزوعات وتكوينات عقائدية يصوغها الحاضر بتعقيداته بقدر ما يصوغها الماضي بمتجلياته وخفياها.. كما يصوغها بقوة وفعالية خاصتين، فهم الحاضر للماضي وأنهاج تأويله له"³، إن السيرة التاريخية في هذه الرواية تشكل لنا موروثا تاريخيا يتعاقد مع الموروث الاجتماعي وكذلك الثقافي الذي تعمد الروائي لإبرازه بصورة لافتة ومتميزة في الآن نفسه، من خلال تعمده لتسليط الضوء على

¹ ينظر صابر الحباشة: غواية السرد قراءات في الرواية العربية، دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، سورية دمشق (د ط)، 2010، ص 10.

² طاهر حليسي، مزرعة الجونكير، دار نسمة للنشر والتوزيع، قسنطينة الجزائر، 2023، ص 152.

³ كمال أبو ديب من مقدمته لكتاب: الثقافة والامبريالية، لإدوارد سعيد، دار الآداب ط1، 1997، ص 16.

الموروث الثقافي لمنطقة الأوراس عموما وقبيلة أولاد فاطمة بالتحديد، وذلك من خلال تسميته لأحد أبطال روايته باسم "علاّ الزهواني" تماهيا مع الأغنية الشعبية المشهورة في المنطقة، حيث كان يطلق العنان لصوته الدافئ مدننا أغنية أوراسية قديمة:

سوسم علا سوسم (اسكت يا علا اسكت)

علا مي (علا يابني)

أنيقا أعلاو ونذاذاك (لنرتدي برنس والدك)

زاداك ايروح يبعذاك (والدك الذي رحل وتركك)

يوي ثاروميث يدجا يماك (تزوج الأجنبية وترك والدتك)¹

إنّ الروائي حاول من خلال توظيفه هذه الأغنية التراثية "علاّ ممّي" أن يؤرخ لتراث المنطقة الثقافي، الذي يتكامل مع الموروث التاريخي في جانبه العام الذي يتصل بالهوية التاريخية الوطنية، التي تشمل أيضا الجانب السيري لشخص هذه الرواية المتميزة؛ ليتأكد أنّ الخطاب مهما كانت مرجعيته يظلّ "خطابا سرديا بالدرجة الأولى، ومهما بالغنا في إسباغ البعد المرجعي عليه فإنّه يظلّ خطابا منجزا في مقام محدد تتحكم فيه اعتبارات شتى توجهه وتضيء مسالك قراءته. وكذلك الشأن بالنسبة للرواية، فهي وإن بدت لنا خطابا تخييليا، لا تنقطع صلتها بالمرجع انقطاعا تاما"²، خصوصا منه المرجع التاريخي الذي حاول الروائي أن يثبته من خلال إقحام خطابات، ومقالات، وحوارات للشهيد البطل مصطفى بن بولعيد وبعض من رفاقه.

إنّ السرد في رواية "مزرعة الجونكيبرا" لا يمثل مجرد خاصية نصية مكونة للخطاب الأدبي، بل يمثل الشرط الضروري والحتي للغة والمعنى والمعرفة، معرفة الذات والعالم. فهذه الرواية تنطلق من أحداث واقعية خاصة في الفصل الأول الذي فضّل فيه الروائي الاعتماد في نسبة غالبية من أحداثها على سيرة ذاتية لوالده أحمد حليسي الذي فضّل أن يروي الرواية على لسانه، وأمه جمعة النوى. ولم يمنع هذا من السرد التخيلي لوقائع، حيث فضل أن يرمز لصدمة مجازر ماي 1945 التي أيقظت الوعي الوطني الجزائري عبر قصة ابني معروف، مبروك الذي مات خلال معارك تحرير فرنسا من النازية، وصالح الذي

¹: طاهر حليسي، مزرعة الجونكيبرا، ص 77.

²: محمد القاضي: الرواية والتاريخ. دراسات في تخييل المرجعي، دار المعرفة للنشر، تونس، ط 1، 2008،

قتل في مظاهرات ماي 1945. وهذه الصورة المتخلية تلخص حدية ما اعترى الضمير الجزائري الذي ضحى أبنائه في سبيل تحرير فرنسا ليكونوا ضحايا فرنسا ساعة ما طالبوا بإنجاز وعد التحرير مقابل الاستقلال.

وتتجلى الأحداث سالفة الذكر في فصل كامل يرويه "معروف يتيم الولدين"، ويمتد من الصفحة 15 حتى الصفحة 26، يقول الراوي: "كان فجر السادس عشر من شهر نوفمبر عام 1954 بارداً. نهضت فزعا بعد ليلة ظل فيها صوت الرصاص يلعلع غير بعيد عن طلبة أذني. خلت لبعض الوقت أن كل ما حدث وهم طل عالقا من معارك خضتها في مونتي كاسينو. تلك التي ظلت كوابيسها تناوشني طيلة هذه الأعوام بين اليقظة والمنام"¹. في هذا المقطع جزء من الذاكرة وظف من خلاله الروائي تقنية الاسترجاع "الFLASH باك" ليصف لنا مظاهر عاشها الراوي في الحرب العالمية التي كان مشاركا فيها.

في هذا السياق "يتحدث الناقد فريديريك جيمسون عن العمليات المشكّلة للسردية، ويعتبرها الوظيفة المركزية للذهن الإنساني. هذه الطبيعة الكلية للسرد تستدعي تقديم تصور معرفي يدرج السرد ضمن الأنساق الثقافية والمتخيل والتاريخ، ويكشف ترابطاته الجدلية ببنيات القوة والرغبة"²، ولهذا صارت الخطابات الإبداعية عموما والخطاب الروائي على وجه الخصوص تنبني على حمولات تاريخية مركزة تجعل من التاريخ مادة طيبة ومغزونا لا ينفذ لرسم مسار أيديولوجي وإبداعي يختلف من روائي لآخر، إذ "بإمكان الرواية أن تستقبل مواد تاريخية لتشييد كيان سردي دال فينا، وبإمكان التاريخ أن يستفيد مما يحتاجه من مواد روائية لتشييد كيان سردي دال تاريخيا"³، وهذا ما انتبه له طاهر حليسي واستثمره بشكل جيد، فقد وظّف الموروث التاريخي والثقافي في رواية "مزرعة الجونكيرا" توظيفا يؤكد أن التاريخ هو السمة الأساسية التي توسم بها الرواية الجزائرية المعاصرة، "فإذا كان المؤرخ يلتزم الحقيقة، فيسرد الأحداث كما شاهدها، أو كما

¹: طاهر حليسي، مزرعة الجونكيرا، ص15.

²: محمد بوعزة: سرديات ثقافية من سياسات الهوية إلى سياسات الاختلاف، منشورات الاختلاف، دار الأمان الرباط، ط1، 2014، ص34.

³: عبد السلام أقلمون: الرواية والتاريخ. سلطان الحكاية وحكاية السلطان، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت - لبنان، ط1، 2010، ص102.

رويت له، فإن الروائي يعتمد التخيل في سرد الأحداث، فيحذف، ويضيف، ويقدم ويؤخر. حتى الروائي الذي يكتب الرواية التاريخية ليس مؤرخاً، ولو أراد ذلك لالتفت إلى كتابة التاريخ على طريقة المؤرخين. إن ما يفعله الروائي الذي يكتب رواية تاريخية هو تقديم أحداث التاريخ في قالب قصصي، أي أنه لا يؤرخ، بل يتخذ التاريخ موضوعاً للسرد، ويخضع المادة التاريخية لطبيعة الفن الروائي¹.

وعوداً على بدء فإن طاهر حليسي ارتأى أن يكشف حقائق تاريخية مرت بها الجزائر بعد الاستقلال، وهو ما يعرف بالمسكوت عنه أو الحقائق المطموسة، وذلك من خلال تجسيد فكرة الخيبة التي عاشها ثوارنزهاء بعد الاستقلال، وبخاصة خلال مجابهتهم لقضية المجاهدين المزيفين. فـ "قدور" كان متعاوناً مع الفرنسيين سيحاول إنقاذ نفسه من انتقام الاستقلال عبر حيازة "اعتراف المشاركة في الثورة حينما يطلق رصاصة على قدمه ليصبح قدور الأعرج -الصفحة 213- ويستميل صديق البطل الرئيسي "سعيد الباربو" ليشهد له مقابل صفقة الحصول على فيلا "السفاح سكالفارو"- الذي كان أعدم ابن عمه في مزرعة الجونكيرو والتي ستصير أيضاً من أملاكه، ويعكس هذا تناول القصة ما عرف بالأملاك الشاغرة، والحدثان موثقان سردياً في فصلين كاملين. الأول منامة الجلال، والثاني لقيطة الحمام.

كما يتناول الكاتب أزمة صائفة 1962 بكثير من المأساوية القريبة من التراجيديا الإغريقية -عقدة أوديب- ولتشريح هذه المأساة التي بدأت خلال الأشهر الأولى للاستقلال عبر حرب الولايات مع جيش الحدود، فضّل الكاتب التأسيس لها من العمق، حيث سنكتشف قصة حب أسطورية بين علاّ الزهواني وغجرية إيطالية، وقعت خلال فترة معارك مونتي كاسينو، وانتهت بولد لم يعلم عنه والده شيئاً جراء رحيله مع الجنود إلى روما ثم الجبهة الفرنسية. وتشاء الأقدار أن ذلك الولد "سيكرس" سيبحث عن والده حتى يعثر عليه بموطنه في جبال الأوراس -الوادي الأزرق-، وسيقرر ذلك الفتى الإيطالي الانخراط في جيش التحرير ليحرّر وطن والده عرفانا له بتحرير وطن أمه، لكن المأساة ستتجلى في صائفة 1962، حيث سيقتل هذا الولد والده في اشتباك قرب مقر الناحية بقسنطينة، في لحظة

¹: محمد رياض وتار: توظيف التراث في الرواية العربية، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، (د).

غموض واكبت زحف جيش الحدود على المدينة، وهي واحدة من أكبر تجليات تلك الأزمة العنيفة التي وصفت بجنازة في عرس¹.

بما أن الرواية كانت في الأصل نابعة من شعور الخيبة التي سيعيشها البطل "حميدة خاليس" كان ينبغي تخيل مشهد صادم، هو ما سيعيشه من خيانة رفيق الكفاح "سعيد الباربو" الذي سيجد نفسه متحالفا مع خائن ثورة هو "قدور الأعرج". ولبيان حجم الخيانة عمد الكاتب بأن يُركّب حدثا متخيّلا على حقيقة، وهكذا سيتم تجريده من أرضه في إطار الثورة الزراعية لتمنح لغانية، في إطار انحرافات وتعسف استعمال السلطة، لتتجلى هذه العبارة "تبا للثورات تطلب منها مفتاح سكن لأولادك فتجردك من أرض أجدادك" (أنظر الصفحة 271 في فصل 9 الجزء الثاني الذي حمل عنوان ناطور الحطام، ويحمل العنوان نفسه معنى رمزيا لحارس بلدي صار يحرس حطام وطن، جراء العبث والتعسف والظلم).

حمل الفصل تطورات كبيرة حيث اتضح أن الباربو لم يمت في دهس قطار، بل كان ضحية دفع من مجهول، ثم لحق به سي الفضيل الذي تم تسخيريه ضد مبادئه، بعدما اتضح له أن الأسرة الثورية لم تعد تملك قوة أمام اللوبي الذي صنعه قدور الأعرج، كما توفيت الراقصة "موني" التي قرّرت تبني جريمة لم ترتكبها! لتأمين مستقبل ابنها ووالدتها بما أنها كانت في حكم المعدومين، جراء إصابتها بداء غامض في تلك السنوات – السيدا- ووراء كل ذلك سيقف قدور الأعرج الذي كان يرغب في اعتلاء مناصب عليا في البلاد قبل أن ينقلب عليه "سيفو الجرذ"، الذي اكتشف أنه نجل بطل ثوري كبير بعدما وصلته مذكرات والده، ويلخص "سيفو الجرذ" الذي تأثر بشخصية علي لابوانت صديق والده، في إعادة الأرض لمالكها بصفة نهائية متخلصا من قدور وشره بطريقة ذكية.

والعبارتان اللتان لخص بهما سيفو المآل هما: "مؤسفة قصة هذه البلاد. ولجت في ثورة عظيمة وانتهت بجريمة كبيرة" الصفحة 372 ثم جملة "إن هذه الأرض جنة مقدسة رغم ما فيها من جحيم، فلا يجب أن يدنسها الشياطين". (الرواية ص 370)

في الفصل الأخير الذي حمل رقما 00 صفر مكرر يهدف إلى ربطه بالفصل الأول الذي بدأت به الرواية، كما لو أن الكاتب يريد أن يؤكد شيئا هو تكرر المشكلات، فالولد الذي قرّر

¹: طاهر حليسي، مزرعة الجونكيرا، ص 235/234.

الهجرة السرية ليلة الفاتح نوفمبر، احتجاجا على الأوضاع الاقتصادية والمادية والاجتماعية، واحتجاجا على ما تعرض له والده الثوري، سيقدر العودة للبلاد في ذكرى الاستقلال، ليقرر إنشاء مزرعة جديدة هي مزرعة بهجة لمسح آثار ما وقع من شر في مزرعة الجونكيرا، لكنه لن يكشف عن سر وسبب عودته سوى على رأس قبر والده المتوفى، حيث نكتشف أنه عاد بعدما اكتشف خيبة أخرى، حين ظن صاحب المزرعة التي يشتغل بها في إيطاليا أنه عثر على كنز، لينتهي الأمر بأن الكنز لم يكن سوى أنبوب مطاطي، ناقل للغاز من الجزائر إلى إيطاليا، ما يدفع مشغله الإيطالي ليسأله عن سبب الهجرة من بلده الغني بالنفط للعمل مثل عبيد المزرعة في حقول إيطاليا. هذه الحقيقة المؤذية نفسيا التي تعبر من خلال الراوي عن الاستياء من وضع الجزائر بعد الاستقلال، كما يرصد الكاتب الواقعة متخيلة التمزق نفسه الذي مسّ جزءا من الفرنسيين بعد أن وجدوا أنفسهم في حرب ضد أولئك الثوار الذين شاركوهم كتائب تحرير فرنسا في معارك مونتي كاسينو والألزاس واللورين، وقد تجلّى ذلك في حادثة التقاء بطلي الرواية "خاليس" و"الباربو" بالعقيد "زاك" الذي كان رفيقهم في الفرقة الجزائرية الثالثة التي لعبت دورا حاسما في مونتي كاسينو، وفتحت الطريق لتحرير روما من النازية والفاشية¹.

لم تغفل الرواية قضايا مسكوتا عنها في تاريخ الثورة؛ مثل العقوبات التي تنال الثوار في حال ارتكابهم موبقات أخلاقية كبرى جرمتها الثورة حتى لو كان ضحاياها فرنسيين أبرياء وعُزل، وهذا للتدليل على قيمتها الأخلاقية الكبرى، حيث نجد جزئية رفض الحاج وهو قائد منطقة وساطة ضابط توبع قربه في قضية اعتداء جنسي ضد معمرة فرنسية، كما يتطرق في أحاديث جانبية عن إعدامات مسّت بعض الرواد في الثورة التحريرية من أمثال؛ شيجاني بشير بتهمة أخلاقية وعباس لغرور، مبرزا كافة الأوجه، حيث ينحو للطابع السردى الخالي من الأحكام بعرضه لكافة الرؤى والتوجهات. (ينظر الصفحات 93/92/91 من الرواية).

دلالة الأسماء في شخصيات رواية الجونكيرا:

تتمحور أحداث العمل الإبداعي حول شخوصه سواء أكان العمل روائيا أم قصصيا، وفي كثير من الأحيان، تعطينا الأسماء لمحة عن الشخصية ومقوماتها

¹: ينظر: طاهر حليسي، مزرعة الجونكيرا، ص 139/138.

وخصوصياتها؛ إذ أنه من المعلوم أن أي روائي يسعى لتحميل شخصياته حمولات رمزية، تسهّل على القارئ تصنيف كلّ منها ضمن دائرتها؛ بل وزيادة على ذلك يعمل على إيجاد أسماء تدل عليها، وتكون بمثابة المعادل الموضوعي لها؛ فبناء الشخصية لا يقوم على جانب واحد فقط، بل إن المبدع (الروائي) يحاول التنسيق بين عدة أبعاد لتكون في الأخير محصلتها الشخصية السردية.

إنّ أول ما يستوقف المتلقي للعمل الروائي هو اسم الشخصية، مهما كانت صفتها في العمل الروائي سواء كانت ثانوية أم رئيسية؛ لأنه يمثل كيانها الخاص "فهو أول المؤشرات على هويتها"¹، وعلى عكس التسمية في الواقع للأشخاص في الحياة اليومية، فإن المبدع يبذل مجهودا لانتقاء أسماء تدل على شخصيات الرواية، "إنّ الاختيار القصدي للأسماء لم يهدف به الروائي إلى تحديد الشخصية وتميزها عن غيرها فحسب؛ بل ليقوم الاسم بتكثيف اقتصادي لأدوار سردية مقولبة"²، كما أن من وراء هذا الانتقاء جملة من الأهداف والحوافز، فمن المهم أن نبحت عن الحوافز التي تتحكم في المؤلف، وهو يخلع الأسماء عن شخصياته"³. وفي هذه الرواية التي بين أيدينا (مزرعة الجونكيرا) سعى الروائي طاهر حليسي إلى مراعاة العديد من الاعتبارات في اختياره أسماء الشخص، وكذلك جملة من المعطيات من بينها: (الخصوصية الثقافية والاجتماعية، البيئة...)، ومن ذلك كني معينة تلحق الأسماء الأصلية للشخصيات؛ أي إضافة مركب جديد إلى الاسم يجعله يشكل مساحة نصية، تضيق أو تتسع، وفق نوع المركب الذي أضيف، كقولنا على سبيل المثال (سي فلان) فإن لفظة (سي) توحى في اللهجة الجزائرية بأن صاحبها على قدر من الواجهة، وعليه فإن دعوة أية شخصية باسم خاص يشكل أبسط عنصر من عناصر التمييز، وهو ما يمنح نوعا من التماسك والانضباط للقارئ، مما يجعل مؤشر الاسم عنصرا هاما في انسجام النص ومقروئته، وهذا ما نجده في الرواية من خلال شخصية

¹: أحمد مرشد: البنية والدلالة في روايات إبراهيم نصرالله، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ببيروت، ط1، سنة 2005، ص 36.

²: هامون فيليب: سيميولوجية الشخصيات الروائية، تر: سعيد بنكراد دار الكلام الرباط - 1990، ص20.

³: حسن بحراوي: بنية الشكل الروائي، المركز الثقافي العربي، بيروت ط، 1990، ص 247.

(سي الباربو) أو من خلال الكنيات، على غرار كنية الأعرج؛ وكنية خاليس التي تعني الخال. إنَّ الاسم يشكل في الوقت نفسه ضماناً الديمومة، والحفاظ على الخبر على مدى تنوع القراءة، فالنص تتغير فيه إشارات الشخصيات مع كل جملة، لا يمكن أن يشكل نصاً مقروءاً¹؛ وعليه يمكن القول: إن الأسماء الواسمة للشخصيات مبنية على القصيدة التي ترمي إلى خلق توازن بين اسم الشخصية، وما رسم لها من دور في الرواية. ما يعني أنَّ "أسماء الشخصيات الروائية ليست منفصلة عن بعضها، بحيث نفسير ونؤول كل اسم شخصية في مداره الزمني أو المكاني أو القيمي أو الأيديولوجي، إنما تأتي بوصفها "علامات سيميائية" مفتوحة على بعضها البعض، سواء أكان ذلك من خلال علاقات التماثل، أو كان من خلال علاقات المخالفة"².

ونبقى دائماً مع قصيدة اختيار أسماء الشخصيات لنقول: إنَّه وبالرغم من أن أسماء الشخصيات لا تأتي اعتباطية، إلا أنَّها لا تعكس دائماً الواقع بالضرورة؛ بل يخضعها الروائي لتجلب الوظيفية ف"التسمية غير بريئة، بل تخضع بدقة إلى الوظيفة التي أوكلت إلى الشخصية المقصودة بها، وهذا الصنيع في حد ذاته، جزء من البناء العام لملامح الشخصيات وتحديد إطار حركتها عبر الخطاب السردي"³؛ من ذلك اختيار الروائي أسماء، وحركة شخوص روايته من ذلك الثلاثي البطل حميدة المكثي (خاليس) وعلاً الزهواني، وكذلك سعيد الباربو الذين تقاسموا الهموم والنضال في معارك مونتي كاسينو جنوبي إيطاليا إبَّان الحرب العالمية الثانية، وعودتهم فيما بعد إلى الجزائر، وخوضهم معارك الأوراس مع بعض.

شخصية الفتاة "دالية" وحمولاتها الهوياتية:

إن شخصية دالية التي اختار لها الروائي دور عشيقة سعيد الباربو، وهي كما تصورها الرواية لقيطة عاشت في حمام ولا يعرف لها أصل ونسب، غير أن المفاجأة المدوية ستقع عندما يتضح مع تطور السرد بأن تلك اللقيطة لم تكن كذلك؛ بل هي في الحقيقية

¹: هامون فيليب: مرجع سابق، ص 49.

²: عثمان بدري: قمم ونماذج من الأدب العربي الحديث، دراسة تطبيقية، ط، 2001، ص 103.

³: عبد المالك مرتاض: تحليل الخطاب السردي، معالجة سيميائية لرواية زقاق المدق سلسلة المعرفة ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط، 1995، ص 135.

ابنة بطل ثوري كبير كان قائد كتيبة البطلين المتعارضين خاليس والباربو، لكن المأزق الكبير هي أنها قتلت، بعدما قررت إعادة الأرض المنهوبة لصاحبها، لتكتشف قصة الجريمة، ثم تداعياتها، حيث سيتأكد سعيد الباربو من خلال إمارة في الجسم، من أنها ابنة البطل الدادالي الذي أنقذه من الموت ورعاية ابنته بهجة التي سماها على اسم عاصمة البلاد، ونتيجة لذلك سيجن ويموت تحت عربة قطار. "إنها مجرد خادمة مجهولة النسب، قدمتها لي امرأة كانت ترعاها في حمام المعلم تفاحة. ربتها راهبة فرنسية التقطتها من دور الأيتام، ثم تركتها عند العجوز بعد مغادرتها البلاد(...) هي بـ"لا سلية ولا مليلة" تبدو لك أول وهلة شجرة وارفة لكن جذعها السامق بلا جذور(...) اسمها دالية لكن كرمة عنكبها بلا ورق ولا ثمر"¹.

ونكتشف من خلال متن الرواية ولعبة الأسماء أنّ دالية اللقيطة لم تكن لقيطة؛ بل ذات أصل شريف باسم بهجة، وهذا يعني أن البطل المنقلب لم يصن أمانة الشهداء، لرمزية اسم بهجة الذي يتجاوز تسمية الشخص إلى اسم الوطن.

إنّ الروائي طاهر حليسي في هذه الجزئية بالتحديد نهج كبار الرواية الجزائرية على غرار عبد الحميد بن هدوقة من خلال شخصية نفيسة التي حملها حمولات دلالية تتماهى مع تيمة الوطن، وكذلك كاتب ياسين في رواية "نجمة" لشخصية نجمة الوطن، نجمة الأرض البعيدة المنال عن المستعمر مهما طال استبداده واستعمار له للأرض².

وتجدر الإشارة إلى أنّ هناك أنواعا من الهوية منها الهوية المحافظة وتمثل "كل هوية تستمد فكرها وفلسفتها من خارج الذات وبمنأى عن إرادتها، وقد يكون هذا الخارج وجودا، أو طبيعة، أو إله، أو تاريخا، أو ثقافة، أو عرفا، أو ديناً، أو قومية عندما يقوم خطاب هوية ما على إحدى هذه العناصر، أو بعضها فإننا نصفه بالمحافظ؛ لأنه لا ينطلق من داخلية الذات، بل من خارجية الأشياء، ولذلك سيرغم الذوات على تكثيف هوياتهم

¹ طاهر حليسي، مزرعة الجونكيرا، ص 251.

² ينظر: فريدة بعيرة جماليات تماهي المرأة مع الأرض في رواية نجمة وريح الجنوب لكاتب ياسين، الملتقى الدولي عبد الحميد بن هدوقة برج بوعريج 2016.

الذاتية وفق هويات قبلية يجدونها جاهزة"¹، حيث أنه "إذا كانت الهويات المحافظة قد استلهمت من فكرة الهوية بين الثبات والمعاودة والشمولية، فإن الهويات الفردية "المتحررة" ستستلهم الوجه الآخر للهوية، وأعني به قيم الاختلاف والتفرد والمغايرة والنسبية"². أما بخصوص تسمية البطل بـ "علّ الزهواني" فإنّ هذا الاسم يحمل دلالة عكسية، فهذا الزهواني ليس زهوانيا، إن الفرح والزهو الذي كان يلاصق اسمه كان يخفي من خلاله "الأسى المحمل بالحنين من العيون المشرعة في قلب محشر الموتى (...). علّ الذي نعرفه في الحزن غير علّ الذي كان يظهر في لحظات الفرح الطافح راقصا مطلقا العنان لشرططين جسده أمام حلق الجنود"³.

خاتمة:

- بعد مقارنة رواية "مزرعة الجونكير" لطاهر حليسي، خلصت هذه الدراسة إلى ما يلي:
- جمع الروائي بين السرد التاريخي، والهوية السيرية لوالده ووالدته في هذه الرواية. وارتأى أن يُحمّله دور الراوي لبعض الأحداث التاريخية الواقعية.
 - هذه الرواية حاولت نفّس الغبار عن حقيقة تاريخية، تتمثل في إمالة اللثام عن بعض التجاوزات والخianات التي تعرّض لها المجاهدون، بعد أن تمكن الخونة (الحركي) من اتخاذ الوطن غنيمة ما بعد الحرب، ومن ثمّ الإمعان في نهب الأراضي والاستيلاء على الممتلكات العامة بُعيد الاستقلال.
 - حرص الطاهر حليسي في هذه الرواية على دمج الموروث التاريخي لمنطقة الأوراس بموروثها الثقافي، من خلال إirاده للأغاني الوطنية والتراثية، وكذلك بعض الطقوس المرتبطة بخصوصيات المنطقة الثقافية والهوياتية.

¹: مصطفى بن تمسك: أصول الهوية الحديثة وعللها مقارنة شارلز تايلور نموذجاً، جداول للنشر

والترجمة والتوزيع، لبنان، ط 2014، ص 29.

²: مصطفى بن تمسك: المرجع نفسه، ص 36.

³: طاهر حليسي، مزرعة الجونكير، ص 77.

- انتقى الروائي شخوص هذه الرواية بدقة، سواء من خلال الاسم أو الكنية، إضافة إلى الرمزية التي تلف كل شخصية، وفقا لما يتطلبه دورها في أحداث الرواية.

قائمة المصادر والمراجع

- 1- طاهر حليسي، (2023)، مزرعة الجونكيبرا، منشورات نسمة، ط1.
- 2- أحمد داود، (2008)، تاريخ سوريا القديم، ط3.
- 3- عبد الرحمان النوايتي، السرد والأنساق الثقافية في الكتابة الروائية.
- 4- صابر الحباشة، (2010)، غواية السرد قراءات في الرواية العربية، دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، سورية دمشق (د ط).
- 5- كمال أبو ديب، (1997) الثقافة والامبريالية، لإدوارد سعيد، دار الآداب ط1.
- 6- محمد القاضي، (2008)، الرواية والتاريخ.. دراسات في تخيل المرجعي، دار المعرفة للنشر، تونس، ط1.
- 7- محمد بوعزة، (2014)، سرديات ثقافية من سياسات الهوية إلى سياسات الاختلاف، منشورات الاختلاف، دار الأمان الرباط، ط1.
- 8- عبد السلام أفلمون، (2010)، الرواية والتاريخ.. سلطان الحكاية وحكاية السلطان، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت - لبنان، ط1.
- 9- محمد رياض وتار، (2002)، توظيف التراث في الرواية العربية، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، (د ط).
- 10- أحمد مرشد (2005)، البنية والدلالة في روايات إبراهيم نصر الله، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت، ط1.
- 11- هامون فيليب، (1990)، سيميولوجية الشخصيات الروائية، تر: سعيد بنكراد دار الكلام الرباط.
- 12- حسن بحراوي، (1990)، بنية الشكل الروائي، المركز الثقافي العربي، بيروت.
- 13- عثمان بدري، (2001)، قمم ونماذج من الأدب العربي الحديث، دراسة تطبيقية.
- 14- عبد المالك مرتاض، (1995)، تحليل الخطاب السردى، معالجة سيميائية لرواية زقاق المدق، سلسلة المعرفة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.

- 15- فريدة بغيره: جماليات تماهي المرأة مع الأرض في رواية نجمة وريح الجنوب لكاتب ياسين، الملتقى الدولي عبد الحميد بن هدوقة برج بوعرييج 2016.
- 16- مصطفى بن تمسك، (2014)، أصول الهوية الحديثة وعللها.. مقارنة شارلز تايلور نموذجا، جداول للنشر والترجمة والتوزيع، لبنان.